البعد الثانى
بين مادة الإنسان وروحه

١ ــ وضوح رؤية الكون والنفس فى ضوء القرآن .

٢ ــ الروح صاعدة من المادة لا هابطة إليها .

٣ ــ مزيد من القرآن فى نشوء الروح من المادة .

٤ ــ روح . نفْس . نسَمة .
ألفاظ عربية ذات دلالات مادية

٥ ــ زوال الحدود المصطنعة بين الإيمان عن طريق المادة والإيمان عن طريق الروح .

٦ ــ من حديث القرآن عن أبعاد النفس الإنسانية .

وضوح رؤية الكون
والنفس فى ضوء القرآن

جناية التهويم الأجنبى على صحو العقل العربى — وضوح رؤية الكون فى ضوء القرآن — توجيه العقل إلى منطق القرآن وحده — رأى القرآن فى المادة والروح — المادة أكثر إثارة للعجب من الروح — العالم المادى هو مجلى ظهور الله وصفاته — العقل بين عالم الخلق وعالم الأمر.

* * *

انتهينا من الحديث عن « البعد الأول » للمادية الإسلامية ، وهو التصور العقلى الإسلامى للبناء المادى للكون وصلته بالخالق المنشئ ، ودلالته على وجوده وإرادته وعلمه وحكمته وقدرته ورحمته وكمالاته التى لا تتناهى ، وعلى وحدة المعايير والمقاييس للحق والباطل والخير والشر ، ووحدة الاتجاه وثبات السنن فى الكون كله ، وعلى الصلة بين العقل الأكبر الذى يحكم الكون ويدبره وعقل الإنسان ، وعلى الارتباط والتطابق بين كلمات الكون وكلمات القرآن ، وأثر ذلك فى إدراك الوحدة بين منطق الخالق ومنطق المخلوق .

والآن ننتقل إلى الحديث عن « البعد الثانى » من أبعاد المادية الإسلامية ، وهو إدراك تكوين الكائن الإنسانى وتركيبه فى ضوء هذه النظرة الإسلامية .

ويطالعنا حديث القرآن عن نشأة الإنسان وتكوينه بالعجب العجاب الذى يجعل العقل العلمى العصرى يقف مبهوراً مقراً بسبق هذا الكتاب وتبكيره إلى ما وصل إليه العلم أخيراً بجهده وأسلوبه وأدواته وأحكامه .

وهذا الحديث عن تكوين الإنسان وتركيبه يقتحم نطاق الوهم العجيب الذى ظل يسيطر على عقول المسلمين طوال القرون الماضية ، منذ أن تغيرت البداهة العربية التى تلقت القرآن بفطرتها السليمة ، وأدركت مفاهيمه بعيداً عن المفاهيم الأجنبية التى وردت إليها فيما بعد من الإسرائيليات والصوفيات الهندية والخيالات والتهويمات البعيدة عن الصحو العقلى الذى يمتاز به الطبع العربى .

وأنا أقدر أن هذا الحديث سيثير جدلا ولغطاً من الذين سيفاجئهم فهمنا لحديث القرآن عن النشأة الإنسانية . . . أولئك الذين يعيشون على جدليات وفروض ما نزل بها القرآن ولا رضى عنها العلم بمعناه العصرى المحدد المؤسس على المشاهدة وإدراك القوانين المادية .

وما كان أولى هؤلاء أن يأخذوا القرآن وحده ويعقلوه ويتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم لا ما تنزلت به أوهام الأمم وشطحات الشعوب . . . إذن لكان المسلمون قد وفروا من عمرهم بل من عمر الناس جميعاً الذى ضاع فى تلك الشطحات والجدليات الفرضية والأوهام ، ولكانوا قد سلكوا الطريق العلمية الصحيحة قبل غيرهم من الأمم بمئات السنين ، ولكان فى أيديهم الآن قياد الحضارة والثقافة المؤمنة غير الملحدة ولا المنكرة للصلة الواضحة بين الطبيعة وخالقها وما وراءها من عالم الأمر والسر . . .

وإنى ، أحاول كما قلت ، أن أقتحم بهذا الحديث معقل المادية الإلحادية الشرقية والغربية . . . أقتحمه بالمادية الربانية القرآنية العلمية البصيرة التى ترى الكون المادى رؤية واضحة ، وتحتفل به وتدرك أعماقه وتتذوق أسراره ، وترى الأدلة والآيات البينة المتحدثة بما فيه من كلمات تستمد وحيها وتتلقى علمها من عبابه الزاخر وهى ترى يد الله البارىء المصور وقد وقفت وراء كل شىء وكل شأن فيه ، قائمة عليه هادية له . . . لا كتلك المادية العمياء التى تقف عند حدود المادية الصماء وقواها وطاقاتها ، ولا ترى تلك اليد التى كونتها وبثت فيها القيم التى تقوّم وتوزن بها .

وأحاول كذلك التنبيه إلى وجوب تحرير العقل الإسلامى من النظرات القاصرة عن مدى ما فى القرآن من تقرير وتقدير للبناء المادى للكون ، وما فيه من أسرار وعجائب . . . تلك النظرات التى ظلت مسيطرة على عقول المسلمين المتأخرين وخدعتهم وجرجرتهم إلى آفاق السراب ، وأخذتهم بعيداً عن الفكر العلمى والعمل المادى لبناء الحضارة والثقافة ، وعن بناء تفكيرهم وفلسفتهم على القيم التى بنى الله الطبيعة عليها ، بجانب القيم الغيبية التى بنى عليها ما وراء الطبيعة ، على نحو ما يوحى به القرآن فى مثل قوله :

(وعندهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعلَمُها إلا هو، ويعلمُ ما فى البرّ والبحْر ،

وما تَسقُطُ من ورقةٍ إلا يَعلَمُها ، ولا حَبّةٍ فى ظلماتِ الأَرض ، ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ إلا فى كتابٍ مُبِين) .

فهكذا كان يجب أن يكون تكيف العقل الإسلامى على نمط ما يشير إليه القرآن ويستعرضه فى مثل هذه الآية ، من علم الله واحتفاله بمفاتح الغيب ، مما يسمو فوق عالم الطبيعة والشهادة ، ومن علمه واحتفاله بكل ما وسعته مادة الأرض من أشياء وأحوال وأسرار وأعراض وأطوار ، صغرت أو كبرت ، أقبلت بها الحياة أو أدبرت . . . وكل أولئك قد سجل وصنف ورتب فى وضوح وإبانة تنبئ عن عناية الخالق به .

فكيف يحيط علم الله هكذا ويحتفل بكل صغيرة وكبيرة فى مادة الطبيعة : و (لا يَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ما بعوضةً فَمَا فَوْقها) . . . وكيف يتابع بعلمه وتدبيره كل شىء فيها ، ولو كان ورقة ساقطة ، أو حبة نامية تدب بالحياة فى ظلمات الأرض ، أو شيئًا رطبًا لينًا تقبل به الحياة ، أو شيئًا تدبر عنه وتتركه يابسًا جامداً . . . ثم بعد هذه الإحاطة الآلهية بكل شىء فى المادة يترك العقل البشرى كل هذا ويدبر عنه ولا يسعى للإحاطة والاحتفال به وتلقى ما فيه من أسرار وتتبع ماله من أحوال . ! !

أجل ، على هذا النمط من الإيحاء القرآنى كان يجب أن ينشأ ويربى العقل الإسلامى ، وأن يتلقى عن الخالق ذى العلم والطول وحى سننه فى الكون وأسلوبه العلمى واحتفاله بالمادة وعنايته بتخليقها وتنويعها ومتابعة أطوارها .

ولكن مع الأسف ، كما سبق القول ، لا يزال أكثر المسلمين المعاصرين يصدرون فى تفكيرهم عن أفكار ليست من وحى القرآن ، وليست من طبيعة إيحاء هذا البناء المادى للكون ، ولذلك لم ينطلقوا برغم طول العهد على بدء اتصالهم بالعلم العصرى من تلك الأوهام التى قيدت أنظارهم وحبستها على مقاطع نظر خادعة .

ولا بأس أن نعود فنستطرد إلى التنويه بصحو العقل العربى الفطرى وعدم تهريمه وانسلاخه كثيراً وراء البداوات والخرافات التى سادت عقول الشعوب الأخرى . وخاصة فى عصور ما قبل الإسلام ، كالهند والفرس واليونان والرومان ، وجعلتها تعيش فى عالم وهمى ، تمتزج فيه الأساطير والخرافات والأوهام حول آلهة مزعومة

فيها طيش البشر ونزقهم وحقدهم وضغينتهم وصغاراتهم وشهواتهم وعلاقاتهم المختلفة فى الحب والبغض والخطأ والنسيان ، ولها بطولاتهم التى لا تبلغ حدود ما يوحى به الكون من عظمة وكمالات لا تتناهى فى الذات الإلهية الواحدة .

وأحسب أن صحو العقل العربى وعدم شروده كثيراً إلى عالم التهاويل والتكاذيب والخرافات كان أكبر ميزة رشحته لأن ينزل عليه القرآن بذلك النسق الإثباتى الجميل الذى أثبت حقائق الكون ووضح معالمه وجعل العقل البشرى يرى كل شىء فيه بوضوح كما وضعه علم الله الخالق وتنظيمه .

ولئن كان بعض النقاد المحدثين يعيبون على العقل العربى فى مجال الشعر والفن أنه محدود الخيال ضعيف الجناح ضيق التصور للأوهام الجميلة والأشباح المستحيلة التى تبدو فى أكثر « الميثولوجى » والأساطير الشعبية فى الأمم الأخرى ، والتى هى مادة خصبة لنسج الأدب والفنون ، فإننا نرى أن تلك الظاهرة جعلت العقل العربى أقرب إلى أن يكون عقلا علميًّا رشيداً صالحًا لأن يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ، فيواجه به عصر العلم والرشد ، ويؤهل الناس للعيش فيه والوصول بمنطقه وأسلوبه إلى إدراك أسرار الله فى التكوين المادى وإلى تأويل ما لم يحيطوا بعلمه .

والآن ننقل القول إلى الحديث عن تكوين الكائن الإنسانى :

يقال : إن الإنسان مكون من مادة وروح . فما هى المادة وما هى الروح أولا ؟

إن المادة هى تلك العناصر المائة والثلاثة التى تكون فى حالة جمادية أو سائلة أو غازية ، وتتكون منها الأجسام منفردة أو مجتمعة بنسب متفاوتة .

ولم يكن القدماء يدركون المادة ومنشأها كما يدركها المحدثون الآن ، إذ لم تكن عناصرها قد ميزت وحددت بخصائصها هذا التحديد العلمى الدقيق ، ولم تكن القوى والطاقات الجبارة التى تنبثق منها أو تتعلق بها كالكهرباء والمغناطيسية والجاذبية والطاقة النووية ، قد كشفت وحددت وميزت ودرست الدراسة المستوعبة .

ولم تكن الحدود بين العلم والدين والفلسفة قد وضحت كذلك ، بل كانت خليطًا ، فكانت الفلسفة تدخل مداخل العلم ومداخل الدين ، وكان طالبو المعرفة يجمعون ما يعثرون عليه سواء كان شيئا حسيًّا أم حكمًا عقليًّا أم تأملا فلسفيًّا أم مذهبًا أخلاقيًا أم عقيدة دينية أم أمراً علميًّا .

ومما ورثناه عن الأقدمين مختلطاً كذلك كلمتا « روح ونفس » ، وقد تناولتهما بالبحث الفلسفة والدين والعلم .

وينبغى أن ندرك فى مبدأ القول أن الروح الإنسانى سواء كان جوهراً مستقلا بذاته قبل اتصاله بالجسم ، أم كان عرضاً من أعراض الجسم والتركيب المادى الإنسانى ، هو أمر عجيب حقاً على كلا الحالين ، وليس يذهب بالعجب منه أنه ناشئ من الجسم الإنسانى كنتيجة لتركيبه المادى وتطوره وكونه فى قمة الحياة العليا ، بل على العكس أرى أن انبثاقه من التركيب المادى للجسم الإنسانى هو أشد إثارة للعجب من كونه جوهراً مستقلا متنزلا من العالم العلوى الذى نؤمن بأن له قدرات لا حدود لها ، فلا يستغرب أى شىء يصدر عنه مباشرة .

كما ينبغى كذلك أن ندرك أن القرآن يقرر أن الآيات والأعاجيب التى فى خلق البناء المادى للكون ، أكثر إثارة للفكر ولدواعى إيمانه ، من أعجوبة روح الإنسان الذى حارت فى إدراكه الأفهام ، على نحو ما يقول أبو العلاء :

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد !

فتلك الآيات والأعاجيب المادية التى فى مادة الكون هى من الكثرة بحيث يعد جاهلا بحق وبليداً بحق من لا يرى فيها أسباباً مقنعة ودواعى للإيمان واليقين بما وراءها من عقل وتدبير وحكمة وعلم وبصر وقدرة وإحاطة .

ولنقرأ هذه الآية من سورة غافر (لخَلْقُ السموات والأَرضِ أكبرُ من خَلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) لندرك على الفور ، أن أمر العجب فى الروح الإنسانى هين بالنسبة للآيات والأعاجيب التى يكاد التفكير فيها يصعق العقل مما تحمله السموات والأرض وما بينهما ! !

ونشوء المادة ذاتها لا يقل العجب منه عن العجب من نشوء الروح ، لذلك قال (ميلْكَن) أحد كبار علماء الكهرباء فى عصرنا هذا ، حينما سئل عن الروح : «خبرونى ما هى المادة أخبركم ما هى الروح . »

والواقع البين أن ما فى التركيب المادى للعالم من مدارات الأفلاك والنجوم والكواكب والأقمار والنيازك والمشاهد والقوانين والقوى والطاقات والأحجام والأثقال ، والحياة والموت ، والجواهر والأعراض ، والتركيب والإفراد ، والجمود والميوعة ،

سيولة وغازية ، والأضواء والظلال والإشعاعات والظلمات ، والغيوم والأصوات ، والحركات والسكنات والهياج والقرار . . . كل أولئك وغيره ، مما لا يمكن تعداده واستيعابه ، كان يجب أن يقنع العقل بدلالاته على أن ما وراءه من أمور مجهولة لا يجوز أن يحول دون التسليم بأن ذلك المجهول الذى لم يدركه العقل والعلم هو أمر واحد عجيب من أمور عجيبة كثيرة لا عدد لها قد أدركها العقل ، وأنه لا يجوز اتخاذه سبباً للشك أو التوقف والتردد أو الإنكار والانغلاق وعدم التفتح للإيمان المطلق بالله الخالق وما عنده من اقتدار .

والعالم المادى هو مجلى ظهور الله وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته للعقل البشرى ، لأنه مجال عمليات الخلق والتقدير والتكوين والتشكيل التى تبدو فى « عالم الخلق » للإدراك الحسى لدى الإنسان ، وعمليات الخلق والتكوين هذه تصدر عن « عالم الأمر » ويشير إلى هذين العالمين معاً قول القرآن : (أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ » ويشير إلى عالم الخلق وحده قوله : « وخَلَق كلَّ شىءٍ فقَدَّرَهُ تقديراً) ، وقوله : (أَعْطَى كلَّ شَىْءٍ خَلْقَه ثم هَدى) ويشير إلى عالم الأمر وحده قوله : (إنَّما أَمرُه إذا أَراد شيئًا أَن يقولَ له كن فيكون » ، وقوله : « إنما قولُنا لشىءٍ إذا أَردْناه أَن نقول له كن فيكون) .

الروح صاعدة من المادة لا هابطة إليها

مقالة القرآن فى خلق الكائن الإنسانى بجسمه وروحه من طين الأرض وعناصرها وأخلاطها . مقالة واضحة صريحة لا لبس فيها ولا غموض . . . ومع ذلك قد مضى هذا الدهر ، الطويل على العقل الإسلامى بعد بداهته الفطرية وصحوه العربى وقت نزول القرآن وقبل أن تلحقه تهويمات الأمم وشطحات الشعوب الأخرى ، وهو غافل عن تلك الحقيقة الواضحة التى يقررها القرآن ، تاركًا للعقل العلمى الحديث أن يصل إلى ما كان يجب أن يصل إليه هو قديمًا قبل غيره ، فيزيل أسباب الشك والجدل الطويل الذى ثار بين العقل الدينى بوجه عام والعقل العلمى ، جدلا قد ينتهى بالثانى إلى الإلحاد والإنكار لأصول المعتقدات الدينية بجملتها بحجة أن ذلك الرأى المزعوم للدين فى الروح ووجودها المستقل قبل اتصالها بالجسم ، رأى يخالف رأى العلم ولا يتفق مع سنن التركيب المادى لأجسام الأحياء ، والنشأة الفطرية الظاهرة لها ، ولا مع طبيعة نشوء الإنسان ونموه وخروجه من ذهول الطفولة وجهل الصبا وطيش الشباب وعقل الرجولة إلى الدور الأخير من حياته ، دور الهرم والتهدم والارتداد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا .

فهو رأى يزيد فى الهوة المصطنعة بين العلم والدين الصحيح فضلا على أنه يضيف إلى نطاق الغيبيات مالا ضرورة لدخوله فيه ، وما لم يأت به علم أو كتاب وحى إلهى مبين . . . إذ أن نشأة الإنسان والحيوان والنبات هى من عالم المشاهدة والصحو العقلى الذى اعتمد عليه القرآن فى إثبات علاقة الآيات والعجائب الظاهرة التى تملأ جنبات الحياة بالخالق المنشىء ، وفى إثبات دلالتها القطعية على وجوده وعلمه وقدرته وإرادته . . .

ومنشأ هذا الرأى أن العقل العربى ، بعد أن تسربت إليه أوهام الأمم والشعوب الأخرى فى العصر العباسى ، أخذ يفقد هذه الميزة الكبرى ميزة الصحو العقلى ورشد الإدراك لظواهر الطبيعة ، ويقول مقالات تلك الشعوب فى أمور خطيرة ، كخساسة المادة وشرف الروح ، واستقلال جوهرها ، ووجودها القديم ، وعلمها وحكمتها وطهارتها ، وهبوطها من العالم الأعلى ، وانطلاقها منفصلة من ذات الله

وحلولها فى الأجسام، وتناسخها وتنقلها فى درجات الإنسانية والحيوانية مرة بعد مرة ، على نحو ما ذهب إليه بعض الفلسفات والصوفيات ، مما أدخل العقل العربى والعقل الإسلامى فى « جحور الضباب الخربة » المظلمة التى ليس فيها ذلك الوضوح فى رؤية معالم الكون وحدوده كما يجليها القرآن للعقل الصاحى والفؤاد اليقظان . . . فإذا أبو العلاء المعرى ، مع أنه من العقليين ، يقول :

تجاور هذا الجسم والروح برهة فما برحت تَأذى بذاك وتَصْدَأُ

وإذا بشيخ الفلاسفة والأطباء الإسلاميين (ابن سينا) يرسل رأيه فى الروح وجوهرها واستقلالها وإدراكها وعلاقتها بالجسم وسجنها فيه وتبرمها به ، فى تلك القصيدة العينية المشهورة :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاءُ ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كُرْهٍ إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع
أنفت وما أنست فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهودًا بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها فى ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخضع
تبكى إذا ذكرت عهودا بالحمى بمدامع تهمى ولما تقطع
وتظل ساجعة على الدمن التى درست بتكرار الرياح الأربع
اذعاقها الشَّرَك الكثيف وصدَّها قفص عن الأوج الفسيح المربع

إلى آخر تلك القصيدة التى هى أوضح تعبير عن الفكر الذى شاع بين المسلمين عن « الروح » فى العصور التى تلت عصر الفطرة والبداهة التى نزل عليها القرآن ، والذى ظل مسيطراً على أغلب الأفكار منذ تلك العصور للآن .

وأمثال معانى هذه القصيدة تسربت إلى العقل الإسلامى من فلسفة أفلاطون والإشراقية الحديثة عن وجود « عالم المثل » ومن الآراء الهندية الهائمة التائهة فى

الوثنيات ، والتى صاحبها اختلاط التفكير وغيام الذهن من أثر الرياضة العنيفة التى تلجأ إليها سعياً وراء الخلاص والانطلاق من منطق المادة .

وقد ظل العقل الإسلامى أسير هذه التخليطات البعيدة عن منطق العلم ومنطق القرآن ، وذهبت عقول كثيرة ضحايا لهذه التخليطات ، كعقل « الحلاج » الذى هو أوضح مثل لاختلاط العقل حين يعتنق مذهب (الحلول) وكعقل(محيى الدين ابن عربى) فى القديم وعقل (معروف الرصافى) فى الحديث وهما من أمثلة الاختلاط الذى يصيب عقل من يعتنق مذهب « وحدة الوجود » .

وقد كان مبعث هذه الأوهام التى تسربت إلى عقل الإنسان فى جميع العصور فصرفته عن الفطرة ومنطق العلم فى إدراك شأن الروح ، هو ذلك الشعور بالفارق العظيم ومدى الانتقال بين حالة المادة وجمودها وكثافتها وعماها وعدم إدراكها ، وبين حالة الإنسان الحى مثلا بعد أن تلبسه الحياة فتجعله ينمو ويتحرك ويتنفس ويشعر ويدرك ويتفتح عن كائن معنوى عاقل خصيم مبين ، يتطلع إلى ما وراء عالمه المادى ويتناول المادة بالتنقيح والتهذيب والتوليد ، بما أودع فيه من قوة الخلق والابتكار واكتشاف المجهول واكتناه الأسرار ، مما جعل عقل الإنسان نفسه يحار ويتساءل عن نفسه وعن الحياة وكيف استُحْدِث الروح والعقل من هذه المادة الجامدة الصماء العمياء ! !

وحق للعقل أن يقف هذا الموقف ويحار هذه الحيرة ويتلمس أسباب التفسير لهذه الظاهرة العجيبة ويرتمى فى سبيل الوصول إلى ذلك فى مرامى الظنون والفروض البعيدة والغريبة بين فلسفة اليونان وصوفية الهنود . . . فإن العقل ما خلق إلا لهذا التساؤل والاستهداء وتلمس تأويل قصة الحياة وقصة منشئها ! وحتى العقل العلمى الحديث لا يزال واقفاً أمام لغز الحياة ونشوئها نفس موقف التساؤل والحيرة وتلمس أسباب نشوئها ، على طريقته وأسلوبه . . . ولا يزال عاجزاً عن تفسير هذا اللغز ، وقد ذهب بعضه فى تعليل ظهور الحياة على الأرض إلى أن جرثومة الحياة ربما تكون قد سقطت إلى الأرض عالقة بجسم قد هوى إليها من السماء ، ثم نمت وتكاثرت وتعقدت فى أطوار النشوء والترقى حتى وصلت إلى الحيوانات العليا .

وهكذا عدنا إلى هبوط للحياة والروح من عالم أعلى ، ولكنه هبوط من نوع آخر غير ذلك الذى ذهب إليه أفلاطون وابن سينا ، وكأن مادة السماء لم يثبت العلم

ذاته أنها هى نفس مادة الأرض بعناصرها وخصائصها، فنشوء الحياة منها هو أيضاً يحتاج إلى مثل هذا العناء والفروض التى ذهب إليها العلم والفلسفة والتصوف . . .

وإن هذا الأمر فى غاية البساطة إذا اهتدينا بضوء الحقيقة التى سبق أن وجهنا الأنظار إليها ، وهى أن ظهور الحياة والروح ليس أعجب من ظهور المادة ، وأن خلق الإنسان والحيوان ليس أكبر من خلق السموات والأرض، حتى نحار فيه وحده، وإذا ما اهتدينا كذلك بضوء حقيقة أخرى هى أيسر الوسائل للوصول إلى حل جميع ما نلاقيه فى الحياة من الغاز وأسرار ، ألا وهى تصوير القرآن لقدرة الله الخالق تصويراً مأخوذاً عن المدى اللا نهائى للصنع الدقيق والجليل والهائل فى التركيب المادى للكون ، وأن ليس شىء أمام قدرة الله بمستحيل إذا أراده وقال له كن !

وحسبنا أن نذكر من القرآن هذه الآيات : (لَخَلْقُ السمواتِ والأَرضِ أَكبرُ من خَلْقِ الناسِ ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون) ، (أَوَ لم يَرَوْا أَن الله الذى خَلق السموات والأَرضَ قادرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهم ؟ !) ، (فاسْتَفْتِهِمْ : أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَنْ خَلَقْنَا ؟ إنا خلقناهم من طِينٍ لازِبٍ) ، (أَأَنتم أَشَدُّ خَلْقًا أَم السماءُ بَنَاهَا ؟ !) ، (إنما قَوْلُنا لشىءٍ إذا أَرَدْنَاهُ أَن نقولَ له كُنْ فيكون) ، وما (أَمْرُنا إلا واحدةٌ كَلَمْحٍ بالبصَرِ) ، (ما خَلْقُكُم ولا بَعْثُكُم إلا كَنَفْسٍ واحدةٍ) ، (فإنَّما هى زَجْرَةٌ واحدةٌ فإذا هم بالسَّاهِرَة) ، (ونُفخ فى الصُّورِ فَصَعِقَ من فى السمواتِ ومن فى الأَرض إلا من شاءَ الله) ، (ثم نُفِخَ فيه أُخْرَى فإذا هُمْ قِيامٌ ينظرون) ، (وما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِه ! والأَرضُ جميعًا قَبْضَتُه يومَ القيامة ،والسمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيمِينه) ، (وَسِعَ كُرْسِيُّه السمواتِ والأَرضَ) .

فلاداعى إذن لتوقف العقل الدينى المنحرف عن منطق القرآن ،ولا لتوقف العقل العلمى هذا التوقف الطويل للتساؤل عن المعبر الذى عبرت عليه الحياة إلى المادة فكان النبات والحيوان والإنسان ، بعد أن علمنا أن أى وجود مهما عظم لا يعدو

أن يكون استجابة حتمية « لأمر » من الله الخالق يصدره إليه أن يكون فيكون . . . وبعد أن علمنا كذلك أن نشوء الكائن الإنسانى بجسمه وروحه من المادة وحدها لا يجوز أن يُزْرى بقيمته أو يقلل من شأن الصنعة فيه ، بل على العكس إن نشوءه من المادة هو أعظم ما يثير العجب ويأخذ بالألباب إلى التساؤل والاستغراق فى التفكير والإسراع إلى الإقرار بقدرة الخالق التى تخرج من الطين اللازب والحمأ المسنون والماء المهين هذا الكائن السميع البصير الخصيم المبين الذى علمه الله الأسماء كلها لما فى غيب السموات والأرض ، وأسجد له الملائكة تكريمًا وتشريفًا ، وفتح له أبواب الطبيعة ومغاليق أسرارها !

فيجب أن يزول من الأذهان ذلك الوهم والزعم القديم بأن عالم المادة عالم خسيس ، لا يليق بشرف الروح أن ينبثق من ظلماته وكثافاته وأمشاجه وأخلاطه ، وذلك الزعم بأن الروح جوهر مستقل عن الجسم قد هبط إليه من العالم الأعلى ليسجن فيه ويتعذب ويشقى بجواره برهة من الزمن ، ثم يتناسخ بعدها ويتقمص أجساماً أخرى إنسانية وحيوانية . . . إلى آخر تلك الشطحات . . .

والأمر قبل ذلك وبعده أمر نصوص قرآنية صريحة متواترة فى تكوين الإنسان وإنشائه من طين الأرض وحدها . وللعلم بعد ذلك أن يحاول بأسلوبه وأدواته تفسير ذلك النشوء باجتماع حالات كيمائية وحيوية (بيولوجية) وعضوية (فسيولوجية) ومناخية ، وبترتيبها ترتيبًا بتوجيه و« أمر » من الخالق الذى (أعطى كُلَّ شىءٍ خَلْقَهُ ثُم هَدى) .

مزيد من القرآن
فى نشوء الروح من المادة

قلنا إن نشوء الكائن الإنسانى فى رأى القرآن كنشوء النبات والحيوان ، وروح الحياة واحدة فى الجميع ، والعجب منها واحد ، لأنها ظاهرة كبرى من ظواهر الطبيعة تستلفت النظر وتثير التأمل وتستحق الانبهار ! لأن هنا حداً فاصلا واضحاً فجائياً بين الجماد الذى لا يتحرك ولا يحس ولا يتنفس ولا ينمو وبين النبات والحيوان والإنسان الذى لابسته الحياة فتحرك ونما وأحس وتنفس .

وظهور الحياة والروح من هذا الطين الميت عملية لا يختلف تقدير سر الصنعة فيها ، لأن التحول والصيرورة من الجماد والموات الذى فى المادة إلى الحياة وحركتها ونموها ، أمر واحد حاسم .

وقد وقف العقل الدينى والعقل العلمى المادى ، كما سبق القول ، أمام ظاهرة الحياة الوقفة الواجبة ، ولكنهما افترقا فى طريقة تقبلها وتعليلها .

أما العقل الدينى فعنده القدرة على عبور كل فجوة لا يستطيع عبورها بأدوات « العلم » ، وكل سر لا يستطيع تفسيره وتعليله حسب التجارب المادية ، وذلك بإحالته إلى قدرة الله وقوله للشىء كن فيكون . . . وليس شىء عند العقل الدينى القرآنى أعجب من شىء آخر فى حقيقة الأمر ، فليس ظهور الروح أعجب من ظهور المادة ، كما سبق القول .

والذى أخرج المادة ذات التعاجيب والتهاويل والأسرار التى تتمثل فى السموات والأرض ، لا يقف العقل الرشيد أمام خلقه للروح وقفة حيرة وتردد أشد من وقفته أمام خلق المادة ، بل الأولى أن تكون الوقفة أمام المادة أشد حيرة وانبهاراً ، لأنها ظهرت من عدم ، أما الروح فقد ظهرت بعدها منبثقة منها ؛ فهى مسبوقة بشىء أعظم منها وأوسع رحباً وامتلاءً بملايين الأسرار والظواهر . . . شىء هو فى قانون التطور والتدرج مُنبَثِق لها ، وهى نتاج من تجمع بعض عناصره وأخلاطه وأسراره ، ومن تركيبها بنسب معينة .

وأما العقل العلمى المادى فقد لجأ إلى إلحاحه ولجاجه وإصراره على تعليل وجود كل شيء تعليلا مستقلا عن إرادة الله وقوله له : كن . . . ولذلك لا يزال هذا العقل المادى واقفاً لا يبرح أمام الروح والحياة ولم يصل إلى حل لسرهما ، وأغلب الظن أنه لن يصل فى تعليل ظهور الروح والحياة إلى أكثر مما وصل إليه العقل الدينى القرآنى واستراح . . . لأن الموقف كما قلنا على حد فاصل واضح بين الجماد والحياة ، والتحول والصيرورة من الجماد إلى الحياة لا يمكن تعليله إلا بإسناده إلى إرادة الله .

وثبوت تلك الإرادة العليا وعلاقتها بالتركيب المادى للكون قد تناولناه فى الأبحاث السابقة فى « البعد الأول » من أبعاد المادية الإسلامية .

وكما قنع العقل العلمى بوقوفه أمام الحدود الفاصلة بين عناصر المادة وظواهرها : وأسرارها وأوضاعها وقوانينها من غير أن يرى فى ذلك غضاضة عليه وقصوراً منه : لأن تلك الحدود هى من طبيعة الكون التى وجد عليها ولا يمكن تعليلها إلا بإرادة الخالق أن تكون هكذا ؛ كذلك يقتضيه الإنصاف والاحترام لنفسه أن يقنع بأن الحياة أو الروح ، هي من أمر الخالق ، وأمرها يدرك بالبداهة كدليل آخر على وجود إرادة عالمة قادرة توسع من رحاب الكون المادى الجامد بتوليده وتشقيقه وكشف كوامن علومه وأسراره ، وبإضافة أبعاد الحياة والروح ، وخاصة الروح الإنسانى الذى جعل الأكوان كأنها بعدد العقول . . . وصار عاملا عظيماً من عوامل التكوين والتخريب والزيادة والتنقيح واختزال الأبعاد والمسافات والتطلع والتفتح الدائم والتغيير والخروج عن الدورات الأبدية والرتابة التى فى الكون . . . فلا داعى إذن إلى التوقف الطويل الحائر المرتاب ، بحثاً عن المعبر الذى عبرت عليه الحياة إلى المادة ، فكان النبات والحيوان والإنسان .

وبما أن عملية الخلق والتنويع فى الكون واحدة فى الواقع . . . فقد قرن القرآن دائماً وجوه التماثل فى خلق النبات والحيوان والإنسان ، بل إنه قرن جميع الكائنات ، سواء أكانت مادة جامدة أم مادة لابستها روح الحياة فيقول : (ما ترى فى خَلْقِ الرحمٰنِ من تَفَاوُتٍ) .

بل هناك ما هو أعجب من هذا . . . إنه يقرن بين الوجود والعدم ، ويرى فى كل منهما نفس الدلالة على إرادة الخالق وحكمته فيقول :

(الذى خلق الموتَ والحياة ليبلوَكُم أيُّكم أحسنُ عملًا) ، (وجعل الظلماتِ والنورَ) . . .

فالموت والظلام وغيرهما من العدميات والسلبيات « مخلوقة » أيضًا لله ، أخرجتها إرادته وجعلتها أطرافًا « سالبة » مع الأطراف « الموجبة » فى الوجود ! !

أما ماذا قبل الظلام والموت ، فالله وحده يعلم ! لأن العقل البشرى لايستطيع أن يرى شيئًا فى هذا العماء . . لأنه لا يملك أداة للخوض فيه .

ونمضى الآن إلى استعراض فيض من القرآن يبين أن الإنسان بجسمه وروحه ناشئ من طين الأرض ، شأنه شأن النبات والحيوان ، وأن الروح صاعدة منه وليست هابطة من عالم آخر .

يقول القرآن :

(والله أنبتكم من الأرضَ نَباتًا) ، (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) ، (وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وَرَبتْ ، إن الذى أحياها لمُحيى الموتَى) ، (وضربَ لنا مثلًا ونَسِىَ خَلْقَهُ ، قال : من يُحْيِى العظامَ وهِى رَميم ؟ قل يُحييها الذى أنشأها أوَلَ مَرَّةٍ وهُو بكل خَلْقٍ عليمٌ . الذى جعل لكم من الشجر الأخضرِ نارًا فإذا أنتم منه تُوقِدُون . أوليس الذى خلقَ السمواتِ والأرضَ بقادر على أن يخلُق مِثْلَهم ؟ بلىٰ وهو الخلاق العليم إنما أمرُه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده مَلَكُوتُ كلِّ شىءٍ وإليه تُرجعون) ، (فانظر إلى آثار رحمةِ الله : كيف يُحْيى الأرضَ بعد موتها ! إن ذلك لمُحيِى الموتَى وهو على كل شى قدير) ، (ما خَلْقُكم ولا بَعْثُكُم إلا كنفسٍ واحدةٍ) ، (فلْيَنظُرْ الإنسانُ مِمَّ خُلق . خُلِق من ماءٍ دافقٍ) ، (قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَره ! من أىّ شىءٍ خَلَقه ؟ من نُطْفةٍ خَلَقَه فقدَّره » ، « فلْينظُر الإنسانُ إلى طعامِه . أنَّا صَبَبْنَا الماءَ صبًّا . ثم شَقَقْنَا الأرضَ شَقًّا . فأنبَتْنَا فيها حَبًّا وعِنبًا وقَضْبًا . وزيتونًا ونخلًا .

وحدائقَ غُلْبا . وفاكهةً وأبًّا) ، (ومِنْ آياته أن خَلَقكُم من ترابٍ ثم إذا أنتم بشَرٌ تَنتَشِرُون) ، (وبدأ خلقَ الإنسانِ من طينٍ ، ثم جعل نَسْلَه من سُلَالَةٍ من ما مَهِينٍ . ثم سَوّاهُ ونَفَخَ فيه من رُوحِه) ، (واللهُ خَلق كلَّ دابةٍ من ماءٍ) ، (وهو الذى خلق من الماء بَشَرًا فجَعَلَهُ نَسَبًا وصِهْرًا) ، (إنى خالقٌ بَشَرًا من طين) ، (إنى خالقٌ بشرا من صَلْصَال من حمإٍ مَسْنون) (خَلق الإنسانَ من نطفة فإذا هو خَصِيمٌ مُبينٌ) ، (واللهُ أخرجكم من بطون أُمهاتِكم لا تَعْلمونَ شيئًا) ، (منها خلقناكم وفيها نُعِيدُكم ومنها نُخرجكم تارةً أُخرى) ، (يا أيها الناسُ إن كنتم فى رَيْبٍ من البَعْثِ فإنّا خلقناكُم من ترابٍ ثم من نطفةٍ) إلى قوله تعالى : (وترى الأَرضَ هامدةً ، فإذا أنزلناعليهاالماءَ اهتزتْوَربَتْ وأنبتتْمن كل زَوْج بهيجٍ . ذلك بأن الله هو الحقُّ وأنه يُحْيى الموتَى) ، (أو لم يَرَوْا كيف يُبْدِئُ الخَلْقَ ثم يُعيدُه؟ ! إن ذلك على اللهَ يسِيرٌ . قلْ سِيرُوا فى الأَرضِ فانظُرُوا كيف بدأ الخلقَ ثم اللهُ يُنْشِئُ النشأةَ الآخرةَ) .

وهكذا يمضى القرآن فى استعراض عام لعملية الخلق بدءاً وإعادة ليوضح أن عملية خلق الحياة وبث الروح فى النبات والحيوان والإنسان واحدة ، وأنها عملية مادية تركيبية لابسها « أمر » من الله الذى يصدره للأشياء فتكون ، فانبثق منها الروح وسارت فى نطاق السنن والقوانين التى وضعها الخالق لنمو حياتها وحفظها وتسلسلها .

وهذا التواتر من آيات القرآن على معنى خلق الإنسان من طين الأرض ، لا يدع مجالا للشك فى أنه بظاهره وباطنه هو من آثار صنع الله فى مادة الأرض، لإبراز ما فيها من أعاجيب وأسرار ، وأنه ليس هناك شىء من عالم آخر فى هذا الكائن إلا « أمر» الله إليه أن يكون .

وعلى هذا لاتكون روح الحياةفى الإنسان جوهراًمستقلا هابطًا من عالم آخر كما كان الزعم القديم الذى أوضحنا بطلانه ، وإنما هى « نتيجة » نشأت من اجتماع

حالات كيميائية وحيوية وعضوية خاضعة لعوامل وأسرار تكوينية فى التركيب المادى رتبها الخالق المنشئ لتنتج هذه النتيجة الطبيعية : روح الحياة .

وهذا الترتيب لمقدمات هذه النتيجة هو معنى من معانى « الأمر » الذى يجرى عمليات الخلق والتكوين فتستجيب له الكائنات كما يريد الخالق .

وما يدق ويخفى سره وتعليله بأسباب ظاهرة ، يحيله القرآن دائمًا إلى عالم « الأمر » (قالت يا ويلتا ! أألِدُ وأنا عجوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخًا ؟ ! إن هذا لشىءٌ عجيبٌ ! قالوا : أتعجبين من أَمْر الله؟) . (قل الروحُ من أمر ربى) ، وجميع أسرار التكوين وقوانينه صدرت من علم الخالق وإرادته « وأمره » . . . وحينئذ يجب ألا يكون لدى العقول تكلف ولا معاناة فى تلمس أسباب ظهور الكائنات وكيفيات خلقها ، ولا تَوَقُّفٌ بشك أو ريب . . . وإنما هنا لَمْحٌ بالبداهة وتسليم بقدرة الخالق وإدراك بصير مطمئن لاستجابة كل كائن ليده و « أمره » .

أما ما يظهر سره للحواس والتفكير التعليلى فيجعله القرآن فى عالم الخلق والتكوين .

وبالإجمال : عالم الأمر هو الذى صدرت عنه قوانين التكوين وتصميماته وتخطيطاته ، وعالم الخلق هو الذى تصدر إليه إرادة التكوين وتسيره قوانينه ؛ فعالم الأمر لا تعليل معه ولا تكلف ولا معاناة لاستدلال أمامه ، بل تسليم وإدراك بالبداهة .

وعند لمح يد الخالق وأمره وراء كل شىء لا يلبث خلق كل شىء مهما عظم وجل سره أن يبدو هينا عاديًا لا يدعو إلى التوقف المرتاب المستنكر أو الساخر المستهين ، وإن كان يدعو إلى التوقف المتعجب المتفتح (بل عَجِبْتَ ويَسْخرون !) ، (وهو الذى يبدأُ الخلقَ ثم يُعيده وهو أَهْوَنُ عليه) ، (قال رب أَنَّى يكونُ لى غلامٌ وقد بلغنى الكبرُ وامرأتى عاقر ؟ ! قال كذلك قال ربُّكَ هو عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وقد خلقتُكَ من قبلُ ولم تَكُ شيئًا) .

(إن مَثَلَ عيسى عندَ اللهِ كَمَثَلِ آدمَ خلَقَهُ من ترابٍ ثم قال له كن فيكون) .

إذن فلا سدود ولا قيود أمام إرادة الخالق وأمره ، ولا حدود لقدرته ، ولا قوالب محدودة لصنعته وإنما هو (يَزِيد فى الخَلْق ما يشاءُ) . (يمحو الله ما يشاءُ ويُثْبِتُ ، وعندَهُ أُمُّ الكتابِ) .

ولا ضير على الروح ولا تحقير لها أن تكون منبثقة صاعدة من المادة بأمر الله ، لاهابطة إليها من عالم آخر . . . بل إنه ، كما سبق القول ، يكون صعود الروح من المادة أعجب من هبوطها إليها .

« وبعد » فحين يكتشف العقل اليوم رأى القرآن فى نشوء الروح من المادة بدليل كذا وكذا من الآيات ، يكون مقرراً لحقيقة علمية أساسية غفل عنها المسلمون بعد عهد صحوهم الأول ، وأخطأوا الطريق إليها دهراً طويلا ، فضلوا فى متاهات الفروض والظنون والشطحات ، وحرموا الإنسانية من معرفة تلك الحقيقة مبكراً على أيديهم ، وجعلوا العقل المادى يمضى فى إلحاده بعيداً عن الربانية ، وتشقى نفسه فى تعليل ظهور الحياة والروح ، ويتوقف أمامها هذا التوقف الطويل المرتاب ، ويقيم على ذلك التوقف والارتياب أساساً من أسس إلحاده وإنكاره للخالق . وذلك حين يسمع قصة ما نزل بها وحىٌ ولا علم ، هى أن الروح جوهر مستقل عاقل حكيم مخلوق قبل الجسم ، هابط إليه من عالم آخر ليسجن فيه ويتأذى ويتعذب ويكابد الشقاء ، على نحو ما تضمنته قصيدة (ابن سينا) العينية التى سبق ذكرها .

وإقامة الحجة على بطلان المادية الإلحادية التى تتهم العقل الدينى باعتماده فى فهم الكون والحياة على مثل هذه الأوهام والخرافات والأساطير ، لا تكون فى هذا العصر إلا بتقديم رأى القرآن فى البناء المادى للكون ، وفى النفس والحياة بنصوصه القاطعة الصريحة المجردة من غيوم الوهم الإنسانى الشارد مع فروض الفلسفات ، والصوفيات المغالية والآراء التى كان العقل يتخبط بينها قبل نزول القرآن .

ذلك لأن حديث القرآن قد أوضح معالم الكون والنفس والحياة ، وجعل العقل يراها رؤية واضحة ويندفع اندفاعات قوية إلى عهد « العلم » بمعناه العصرى المحدد الذى صارت له وحده الآن الهيمنة والسلطان على حياة الإنسان وتفكيره وعمله ، وانتصر به انتصاراته الهائلة ، مما يخيل إليه أنه صار مستغنياً بنفسه وعلمه عن التفكير فى الخالق والتعرف إليه والتعبد له ، فيمضى فى حياته فى ذهول عن تذوقها

تذوقيًا حقيقيًا وتعليل وجودها وموتها تعليلا صحيحًا، وفى غرور وإفك واعراض عن منشئها وسيدها . . على نحو ما قال (تيتوف) أحد رواد الفضاء الروس : « إنه خلال رحلته حول الأرض لم ير شيئاً يجعله يعتقد فى وجود الله » وقال: « إننى لا أعتقد فى وجود الله . . . إننى أومن بالإنسان . . . بقوته وإمكانياته . . . » وعلى نحو ما قال من قبله الرائد السوفييتى الآخر (نيكولاييف)حينما سألته امرأة هل رأيت الله فوق ؟ فأجابها : « إننى لم أر غير نيكولاييف ! » .

وهذان القولان يكشفان عن مقدار الطفولة والقصور فى العقل غير الدينى ، وخاصة غير القرآنى ، عن التصور الواجب للخالق ، وكأن ارتفاع بضعة آلاف من الأميال أو ملايين الأميال سيقرب رؤية الإنسان لله بعينيه! وكأن هناك شيئًا غير العقل والبصيرة يمكن أن يدرك الله ويحكم بوجوده هنا فى الأرض أو عبر الفضاء الكونى وإن لم يره بعينيه! وكأن ما فى الأرض من آيات وأعاجيب لا يكفى للإيمان بوجود الخالق ! وكأن الإنسان قد خلق نفسه وخلق إمكاناته وقدراته التى اغتر بها تيتوف ! وكأن إمكانيات الإنسان وقوته هى التى خلقت هذا الكون الكبير وما فيه حتى جعلت (تيتوف) يؤمن بها وحدها ولا يؤمن بالله ! وكأن الإنسان يعيش وحده فى هذا الكون الهائل ! وكأنه فرغ من حل كل ألغازه وأسراره وخرج من أقطار سماواته وبحث فى جميع زواياه عن الله فلم يره !

وصدق القرآن . . وكأنما كان يخاطب هؤلاء المنكرين العصريين أيضًا: (الذى خلق الإنسانَ من نُطْفة فإذَا هو خَصِيمٌ مبين) ، (أَمْ خُلِقُوا من غيرِ شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خَلَقوا السموات والأَرضَ ؟ بل لا يُوقِنُون أم عندهم خَزائِنُ رَبِّك ؟ أم هم المُسَيْطِرُون) .

ألا إنها طفولة عقلية مسكينة . . . نشأت فى كنف « المادية الجدلية » التى كان تقصير المسلمين فى إبلاغ المنهج القرآنى فى التذكير والاستدلال على وجود الخالق سببًا فى حرمانها من رؤية معالم الكون والنفس والحياة رؤية واضحة، وفى معرفة الله الخالق والإيمان به عن طريقها بيسر وسهولة وفطرة سليمة ما كان ليصدر عنها مثل قول (نيكولاييف) و (تيتوف) ومثل قول الرئيس (خروشوف) لبعض الصحفيين الغربيين فى احتفال سفارة بولندا فى موسكو سنة ١٩٦١ أو ١٩٦٢ بعيد

استقلالها : « إذا كان إلهكم موجوداً فلماذا لاينزل ويكنس أعداءكم بمكنسته ؟! » .

وهذا قول يكشف هو الآخر عن مدى الفراغ والضحالة والسطحية ، حتى لدى بعض رؤساء المذهب الشيوعى ، فى تصور الله الخالق وإدراك ما يجب له من صفات وكمالات !

وكأن (خروشوف) يتصور أن يكون الخالق هكذا ضيق الصدر ، ضيق الأفق ، غضوباً جباراً باطشاً بمخالفيه ومنكريه . . . يعجل عقوبته وانتقامه بمجرد اقترافهم المخالفة والإنكار ، على غرار ما يفعل الشيوعيون وغيرهم بمخالفيهم . . . وكأن الإله لايزيد على أن يكون شيخ خفراء أو « عمدة » فى قرية . . . أو رئيس شرطة فى « نقطة » . . . ومن نوع ردىء جداً لا يفهم مهمة الحاكم وما يجب أن يتصف به من حلم على المواطنين واحترام لحرياتهم وإنسانيتهم ، ورحمة وحكم بسطوة الحب لا بسيف الجلاد وسوطه . . . حتى يجمع الشارد ويردّ الآبق ويمسح بيد أبوته وطيبته على صدور الأعداء من رعيته فيشفيها من عداوتها وحقدها عليه ، ويرجع بها إلى رحاب الاعتراف والإيمان به ، وينجيها من الضياع والإهدار والطرد واللعن وسوء المنقلب !

روح . نفس . نسمة
ألفاظ عربية ذات دلالات مادية

من أوضح الدلالات على أن روح الإنسان ، صاعدة من المادة لا هابطة إليها ، أن كلمة (رُوح) أو كلمة (نفْس) أو كلمة (نسَمة) مشتقات من أصول ذات دلالات مادية فى اللغة العربية .

فكلمة (روح) مشتقة من الرَّوْح أو الرِّيح بمعنى الهواء الذى يتردد فى صدر الحى شهيقًا وزفيراً عند التنفس ، ويموت وتنقضى حياته إذا منع عنه .

وبما أن أوضح مظهر لحياة الحى هو ذلك الرَّوْح أو الريح والهواء الذى يدخل ويخرج من صدره ، فقد ربط الذهن العربى الرشيد بين الحياة وبين أوضح مظاهرها فسماها باسم ذلك المظهر . . . وهو الريح أو الرَّوْح . . .

وما يقال فى اشتقاق كلمة (الروح) يقال مثله فى اشتقاق كلمتى (نفْس) و (نسَمة) .

فكلمة (نفْس) مأخوذة من كلمة (نفَس) وهو دخول الهواء إلى صدر الحى وخروجه منه عند (التنفس) لأن أبرز مظاهر الحياة للنفْس هو النفَس .

وكلمة (النفْس) فى العربية تطلق على الإنسان بجسمه وروحه (هو الذى خلقكم من نفْسٍ واحدةٍ وجَعَلَ منها زَوْجَها) ، (كلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت) ، (وما كان لنفْسٍ أن تَمُوتَ إلا بإذنِ الله) ، (ونفْسٍ وما سَوَّاها فأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا) .

كما تطلق النفْس على الدم كما فى تعبيرات الفقه الإسلامى « وما لا نَفْسَ له سائلة إذا وقع فى الإناء ومات فيه فإنه لا ينجسه » أى وما لا دم له سائل .

ومنه (النُّفَساء) وهى الأنثى عند ما يسيل منها دم الولادة فى مدة (النِّفاس) .

وسر تسمية الدم بالنفْس أن الذهن العربى وجد أن حياة الإنسان والحيوان تنتهى ويموت بنزف دمه ، فربط العرب بين الأمرين واشتقوا بفطرتهم السليمة وذهنهم

الدقيق الرشيد اسمًا للحياة من اسم مظهر واضح من مظاهرها وهو الدم . . . كما فعلوا فى اشتقاق كلمة روح من الريح .

وكذلك كلمة (نسَمة) وهى كل كائن حى ، أخذت من (النسيم) وهو الريح اللينة الرقيقة لأن الحى يتنسمها عند التنفس والاسترواح .

وبما أن سر الحياة سر شديد الخفاء لا يُحَسّ ولا يُرَى ، وإنما تحس وترى آثاره ومظاهره ، فقد لحظ الذهن العربى أن يكون اسم هذا السر الخفى مشتقًا من اسم ألطف شىء مادى وأشده خفاء ، وهو الرَّوْح أو الريح أو النفَس أو النسيم الذى لم يدرك ذلك الذهن كنهه أيضًا ، ولكنه أدرك آثاره ومظاهره . . .

وعلى ذلك تكون لكلمات (رُوح) و (نفْس) و (نسَمة) دلالات مادية فى اللغة العربية ، لأن الريح والنفَس والنسيم هى أجسام مادية غازية ، والغاز هو ألطف أنواع المادة وأشدها خفاء .

ومن هنا ندرك سرًّا من أسرار نزول القرآن باللغة العربية التى لأذهان أصحابها هذه الدقة العلمية فى مراعاة اشتقاق الألفاظ ووضعها حسب العلاقات المادية ، وترجمتها المعبرة عن ظواهر الطبيعة .

ومن الملحوظ أنه لم يكن الحديث عن النفس أو الروح الذى به الحياة ، يدور عنهما فى عهد نزول القرآن باعتبارهما كائنين منفصلين عن الجسم ، لهما حياة مستقلة سابقة عليه أو لاحقة به كما حدث فيما بعد عهد صدر الإسلام ، حينما اختلط العرب بغيرهم من الأمم التى ليس لها رشد الذهن العربى وسلامة فطرته . . . ودقة تعبيره ، وقد دخلت فى الإسلام بكثير من شطحاتها وتهويماتها وتأويلاتها الصوفية والشاعرية للظواهر المادية . . . وحينئذ نشأ حديث انفصال الروح والنفس عن الجسم ، وأنها هبطت إليه من عالم المثل لتسجن فيه وتعذب مدة ثم تطلق لتعود إلى مصدرها .

وليس فى الأدب العربى الجاهلى فيما أعلم شىء من حديث الانفصال بين الجسم والروح أو النفس ، لأن البداهة العربية كانت تدرك أن مدلول كلمة الإنسان أو كلمة النفس يشمل الجسم وسرّ حياته ، وأنه لا انكفاك بينهما .

وكذلك القرآن لا حديث فيه إلا عن الإنسان أو النفس ونشأتهما من طين

الأرض أو من سلالة من الطين . ثم يموت ثم يبعث بكل ما فيه من الخصائص المادية ليعيش فى دور الحياة الثانية . ليمتع فى الجنة أو يعذب فى النار .

(وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ ، ثم جَعَلَ نَسْلَهُ من سُلاَلَةٍ من ماءٍ مَهِينٍ) ، (يا أيُّها الناسُ اتَّقُوا ربَّكم الذى خَلَقكم من نفسٍ واحدةٍ وخَلَقَ منها زَوْجَها وَبَثَّ منهما رجالا كثيرًا ونساءً) ، (ما خلْقُكم ولا بعْثُكم إلا كنفْسٍ واحدةٍ) ، (كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت وإنما تُوفَّوْنَ أجورَكم يومَ القيامة فَمَن زُحْزِح عن النار وأُدْخلَ الجنةَ فقد فاز) ، (وقال الذين كفروا : هل نَدُلُّكُم على رجلٍ يُنَبِّئُكُم إذا مُزِّقْتُم كُلَّ مُمَزَّقٍ إنكم لفى خَلْقٍ جديدٍ ! ؟) ، (وقالوا أئِذا كنا عظامًا ورُفَاتًا أئِنَّا لمبعوثون خَلْقًا جديدًا ؟ ! قل كونوا حجارةً أوحَديدًا أو خَلْقًا مما يَكْبُرُ فى صدوركم ، فَسَيقُولُون مَن يُعيدُنا؟ قل الذى فَطَرَكم أولَ مَرَّة) ، (كما بَدَأَكُم تعودون) .

* * *

إذاً فالحياة واحدة هنا وهناك فى الآخرة بعد البعث من الموت ، حيث تبعث الأجسام مع سر حياتها الذى عاشت به فى دنياها ، وهذا السر صاعد من مادة أجسامها بأمر ربها الخالق وتدبيره .

وصعود هذا السر وظهوره من مادة الأجسام أشد إثارة للعجب والدهشة مما لو كان قد هبط من عالم الملأ الأعلى ، كما سبق القول .

وهذه الدورة الثانية لحياة الإنسان يقول عنها القرآن إنها دورة أبدية (ذلك يوم الخلود) ، (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) .

* * *

هذا ويمكن حصر المعانى التى لكلمة (روح) بالقرآن فى المعانى الآتية . وهى معان يجمع بينها جامع الخفاء والسرية واللطف وبث الحياة الحيوانية أو المعنوية :

فهناك (الروح) بمعنى سر الحياة الناشئ بأمر الله وتدبيره من تركيبات المادة وقواها وطاقاتها كما تبدو فى الحيوان والإنسان بل والنبات . . . على نحو ما بينا فى هذا الفصل وفى فصل « الروح صاعدة من المادة » . . . وقد عبر القرآن عن عملية

بثّها وبعثها فى مادة الحيوان والإنسان « بالنفخ» وذلك للتناسب الملحوظ بين النفخ وانبعاث « الريح» أو « الرَّوْح» من فم النافخ ودخوله فى الجسم المنفوخ وامتلائه منه ثم ارتداده وخروجه بالنفَس .

ومن هذا المعنى قول القرآن : (فإذا سَوَّيتُه ونَفختُ فيه من رُوحِى فقعُوا له ساجدين) ، وقولُه :(وإذ تَخْلُقُ من الطين كهَيْئَة الطَّيْرِ بإذنى فتنفخ فيها فتكونُ طَيرًا بإذنى) ، وقوله :(ثم سوّاه ونَفخ فيه من رُوحه) ، (والتى أَحْصَنَتْ فَرْجَها فنفخنا فيها من رُوحنا) .

فعملية خلقِ الحياة فى الجسم يعبر عنها القرآن بالنفخ ، للمناسبة التى ذكرناها .

وهناك « الرُّوح» بمعنى « الوحى» كما فى آيات القرآن الآتية :

(ويسأَلونك عن الرُّوح قل الروح من أَمْرِ رَبِّى وما أُوتيتمْ من العلم إلا قليلا. ولئن شئْنا لَنَذهَبَنَّ بالذى أوحينا إليك ، ثم لا تَجِدُ لك به علينا وكيلا) ، (وكذلك أوحينا إليك رُوحًا من أَمْرِنا) ، (يُلْقِى الرُّوح من أَمْرِه على مَن يشاءُ من عباده ليُنْذرَ يوم التَّلاقِ) ، (يُنَزِّلُ الملائكةَ بالرُّوح من أمره على مَن يشاءُ من عباده : أَن أَنذرُوا أنه لا إلَه إلا أنا فاتقون) .

فالروح فى هذه المواضع كما هو واضح بمعنى الوحى بالقرآن والنبوات والرسالات .

وهناك « الرُّوح» بمعنى المَلَك « جبريل» الذى يحمل الوحى بالنبوة إلى رسل الله وأنبيائه . . . كما فى الآيات التالية

(نَزَل به الرُّوحُ الأَمين . على قلبك لتكون من المُنذرين . بلسان عربىٌ مُبين) .

وهناك « الرُّوح» بمعنى « جبريل» أو بمعنى مَلَك آخر أكبر منه درجة وقدرة وسُلطة وهو أقرب الملائكة إلى الله كما فى قول القرآن :

(تَنَزَّلُ الملائكة والرُّوح فيها بإذن ربِّهم منْ كُلِّ أَمْرٍ) ، وقوله : (تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوح إليه فى يوم كان مقدارُه خمسين ألف سنة) ، (يوم يقوم الرُّوح والملائكة صفًّا لا يتكلمون) ، (فأَرسلنا إليها رُوحَنا فَتَمَثَّل لها بَشَرًا سَويًّا) ،

وهناك (روح القدس) وهو (جبريل) أو الملك الأكبر كما فى قوله : (قل نَزَّلَهُ رُوح القُدُس من رَبِّك بالْحَق) ، (وآتينا عيسى بنَ مريمَ البينَاتِ وأَيَّدْناهُ برُوح القُدُس) ، (اذْكُرْ نعمتِى عليك وعلى والدتك إذ أَيَّدْتُكَ برُوح القُدُس) .

وهناك (الرُّوح) بمعنى القوى المعنوية المستمدة من الإيمان بالله وعالَم قدسه وكمالاته وقدرته ورحمته كما فى قوله :

(أُولئك كَتَب فى قلوبِهم الإيمانَ وأَيَّدهُم برُوحٍ منه) ، (ولا تيأَسوا من رَوْحِ الله ، إنه لا ييأَس من رَوْحِ الله إلاَّ القومُ الكافرون) .

زوال الحدود المصطنعة بين الإيمان عن طريق المادة والإيمان عن طريق الروح

فى هذا العصر ، عصر سلطان العلم وظهور أسرار الكون المادى للعقل الإنسانى ، ووضوح رؤية معالمه ، وبناء كثير من المذاهب والمبادئ ، والآراء على الأسس العلمية ، ينبغى للدعوة الإسلامية الجديدة أن تلتزم خط التعريف بنفسها عن طريق العقل والعلم لأنه هو نفسه طريق القرآن .

وقد وضح واستعلن استعلانَ النهار أن القرآن أعظم سِفْرٍ دينى أقام دعوته على العقل والعلم وجعل الدين علمًا والعلم دينًا . . . فكانت أولى آياته نزولا صادعة آمرة بالدين ومعرفة الله الخالق عن طريق التأمل فى أسرار علمه التى أودعها فى خلق الكون والإنسان ، وعن طريق التنويه والتوجيه إلى القلم : صانع أرصاد العلوم وخزائنها ، ومفتاح كنوزها وطلاسمها !

(اقرأْ باسم ربِّكَ الذى خَلَق . خَلَق الإنسانَ من عَلَق . اقرأْ وربُّكَ الأكرمُ . الذى عَلَّمَ بالقَلَم . عَلَّمَ الإنسانَ ما لمْ يَعْلَم) .

وبذلك جعل القرآن العلم طريق معرفة الله وجلاله والتعبد له ، بتتبع صنع يده القادرة وحكمته الباهرة ورحمته الغامرة .

ومن الكثرة الهائلة فى آيات القرآن الكريم التى توجه الأنظار والأفكار دائمًا إلى بدائع صنع الله فى التركيب المادى للكون ، نعرف مقدار اعتزاز الله واحتفاله بما صنع فى ذلك العالم ، ومقدار عنايته ببناء العقيدة الدينية على أساس العلم بذلك الصنع البديع .

وقد بنى الله الخالق تكريمه للإنسان وأمره الملائكة بالسجود له على اختصاصه بعلم جميع الأشياء وأسمائها كلها مما فى غيب السموات والأرض ، وهى تلك الأسماء التى وضعها الإنسان لآيات الله وكلماته الصامتة فى الكون ، وترجمها إلى عالم التعبير والبيان ، (خلق الإنسانَ . عَلَّمه البيانَ) ، (وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها) .

وحينما يرتد الإنسان عن نهج هذا العلم المادى الموصول بالله ، يسقط عنه تاج الكرامة والقدرة وتأكله الطريق وتضيعه الجهالات والتهويمات والشطحات والخرافات ، ويفسر الحياة والكون تفسيراً غير علمى ولاقرآنى ، ويَرُوحُ يبحث عن عوالم أخرى وراء الكون المادى ، يلتمس منها الإيمان ؛ كأن ما فى السموات والأرض والنفس من آيات بينات لا تكفى فى التعريف بالله والإيمان به وبالمصير إليه !

وفى رأيى أن من أعظم أسباب تعويق العقول العلمية المادية المعاصرة وتعطيلها عن أخذ الوجهة الصادقة فى العقيدة الدينية ، هو هذا التفريق الذى يقدمه الدينيون المتأخرون بين ظواهر الحياة الإنسانية والكونية مادة وروحاً ، فيهدرون قيم مادة الأجسام أو يحتقرونها أو يمرون بها مروراً عابراً معرضاً لا يرى ما تضمه من عجائب وأسرار ، ويتطلعون إلى ما وراء ها من آيات الروح وعجائبها ، ثم يذهبون فى عالم التخيل السايح الحالم المنطلق وراء بَدَوَات الأوهام وشطحات الذهول ، تاركين عالم الصحو والواقع والإدراك القائم على حقائق التكوين المادى للكون والنفس والحياة ؛ تلك الحقائق التى هى طريق العلم واليقين وطريق القرآن فى استدلاله على الله الخالق وما عنده فى الملأ الأعلى .

وإنى أتساءل : هل لو رجعنا كل خصائص وجود الكون والإنسان — ما عدا وحى الله برسالاته وإلقاء أوامر التكوين إليهما — ظواهر وقوانين مادية لا صلة لها بغير المادة ؛ أكان ذلك يغض من قيمة الكون والإنسان ؟

وبعبارة أخرى : هل لو جعلنا الإنسان بظاهره المادى وباطنه الخفى المعنوى نتيجة لالتقاء مجموعة عناصر من المادة وقوانينها وتركيبها وتعقيدها ، وعرفنا أن حياته واهتزازه وتفتحه ونموه وإدراكه ، ما هى إلا نتيجة لاجتماع تلك القرانين والعوامل المادية التى وجدت والتقت بأمر الخالق وتدبيره وترتيبه ؛ أكان ذلك ينقص من قيمة العجب الذى يقف به العقل مبهوراً أمامها ؟

وهل ليس هناك ما يفسر له هذه العجائب والأسرار ويذهب عنه الدهش إلا أن يرى هذا كله هابطاً من عالم آخر ؟

إن الذى يثير اللوم والاعتراض على هذا الطراز من التفكير هو هذا التنقيص من قيم الظواهر والقوانين المادية وعدم الاقتناع بها عند الاستدلال على الله ، وهو

هذا التطلع الشره إلى كل ما هو غائب عن تلك العقول وراء التركيب المادى للكون قبل الفراغ من إدراكه هو واستيعابه ، وهو هذا الإزراء والتقليل من شأن هذه الظواهر المادية التى لا تعد ولا تحصى ، والتى هى أعلام دائمة منصوبة لكلمات الله ، ومحاريب قائمة لإقامة صلوات الفكر وإثارة أشواق النفس له ! لأنها معجزات دائمة تُدْرَكُ بالحس والبداهة ، وهو أيضًا ذلك الإلحاح فى مطالب طفولية ، وعدمُ الاكتفاء فى الحياة بآيات كثيرات واضحات لا لبس فيها ، وانتظار عجائب من ورائها تتنزل من الملأ الأعلى أو حتى تنبثق من الأرض ، كما يحكى القرآن :

(وقالوا لن نؤْمنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأَرض ينبوعًا) إلى قوله : (أَو تَأْتِىَ بالله والملائكةِ قبيلا) وكما يقول : (وقال الذين لا يعلمون لولَا يكلمُّنا الله أَو تأْتينا آية . كذلك قال الذين من قبلِهِم مثْلَ قولِهِم ، تشابهت قلوبُهم ، قد بيَّنَّا الآياتِ لقوم يوقنون) ويقول : (هل ينظرون إلا أَن يأْتيَهُم اللهُ فى ظُلَلٍ من الغمامِ والملائكة) ، ويقول : (وقالوا لولا أُنْزِلَ علينا الملائكةُ أَو نَرَى رَبَّنا) .

وهكذا تمضى طفولية بعض العقول وتعنتها ووقاحتها وشرهها وملَلُها إلى استعراض سخيف لمطالب وظواهر تَرَى ملايينَ مثلها تملأ الحياة ، ولكنها لا تقتنع بها .

إن التركيب المادى للكون ما هو إلا مَعْرِضٌ دائم للآيات والبدائع ذات الدلالات الواضحة للعقول غير المؤوفة بآفات العمى والإعراض والعجلة والملل والسأم والتعنت ... وصدق القرآن :

(وكأَيِّنْ من آيةٍ فى السمواتِ والأَرض يَمُرُّونَ عليها وهم عنها معرضون) ، (قل انظرُوا ماذا فى السمواتِ والأَرض ، وما تُغْنِى الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا يؤْمنون) .

ومن أشد الوقاحات وقلة الذوق أن يدخل داخلٌ إلى رحاب مَعْرِض أو مُتْحف حافل بالعجائب والبدائع الرائعة ، وقد دعاه إليه صاحبه وصانع روائعه ، فإذا به يسرع فى العبور بمعروضاته واجتياز ردهاته ، ولا يرى فيه شيئًا يعجبه ويقنعه ، بل يبدو عليه

الملل والسأم وعدم الارتياح لما فيه ، ويسرع إلى الخروج منه . . . ويروح يلتمس أسبابًا أخرى لتقدير صاحب المتحف أو المعرض خارج حدودهما . . .

ذلك شأن من يسرع فى اجتياز عالم الخَلْق ولا يرى فيه مقنعًا يقنعه ، ويبحث عما وراءه فى عالم « الأمر » والسر .

وإن التبرم بالكون المادى والزهد فى أسراره قبل الفراغ من إدراك الخلق والفن والعلم الإلهى فيه قلة ذوق ، بل وقاحة ترتفع إلى نوع من أنواع الكفر .

وفى ظنى أن ذلك أعظم مكايد ما يسميه الدين بالشيطان عدو الحياة والإنسان ، الذى يعلم أن عرش الإنسان الحقيقى الذى أجلسه عليه الخالق غداة يوم النشأة عندما علمه أسماء ذلك العرش وأسراره وكلماته وأمر الملائكة بالسجود له من أجل ذلك العلم ، هو عالم الخَلْق . . . عالم التركيب والتشكيل المادى للكون وأسراره وقوانين التكوين والتخريب فيه ، مما جعل الإنسان جديراً حقًا بخلافة الله الخالق فيه .

إننا إذا وصلنا فى تنشئة العقول وتربيتها إلى أن نجعلها تدرك بتعمق وتذوق قيم الظواهر والقوانين والأسرار المادية فى الطبيعة والإنسان خاصة ، وربطنا بين رؤية تلك الظواهر والقوانين ورؤية يد الخالق وراءها دائمًا ، نكون قد هيأنا للعقل العلمى المادى وسائله الفعالة الحاضرة التى لا تحتاج فى حَمْله على الإيمان الكامل المستنير إلى غيبيات ومعجزات وكرامات ، ونكون بذلك قد جعلنا سبيل الدين والعلم واحدة كما جعلها القرآن ، وطمأنا العقول العلمية على التزامنا للمنهج العلمى وتقديره ، لأنه هو المنهج القرآنى ذاته .

وصفوة القول فى هذا الباب أن يكون تفكيرنا وإيماننا مبنيين على هذه الحقيقة الثابتة التى تمحو من أذهاننا صورة الحدود المصطنعة بين الإيمان عن طريق المادة والإيمان عن طريق الروح ، وأن نستحضر دائمًا أن مصدر كل شىء هو أمر الله إليه أن يكون ، سواء أكان ماديًا أم غير مادى .

وصفوة الصفوة من هذا القول : إن المادة لا تقل إثارة للعجب عن الروح ، وأن آفة بعض العقول أنها لا تلتمس الإيمان إلا عن طريق خوارق العادات ، ولا تلتمسه مما التمسه منه القرآن وهو تلك الكثرة الهائلة التى لا تحصى من عجائب الكون المادى الدائمة . . . حتى إذا رأت معجزة خارقة لنبى أو كرامة لولى ، استيقظ

ما فيها من الإدراك والشعور ، ورأت أن هذا الخارق غير المألوف هو العجيب الوحيد الذى يحملها على الإيمان والتسليم . . . مع أن هذا العجيب الخارق للعادة فى رأى القرآن وفى رأى العقل البصير لا يقيم الحجة دائمًا مثلما ما تقيمها العجائب المستمرة الدائمة فى الكون المادى الكبير .

من حديث القرآن عن أبعاد النفس الإنسانية

حديث القرآن عن الإنسان وأبعاد نفسه ، جانب كبير من مادته وبيانه . ونقتصر هنا على عرض بعض حديثه عن أبعاد فكر الإنسان وضميره ، لنثبت أكبر قضية أساسية فى بناء التفكير الدينى والفلسفة الإثباتية النظرية والعملية والقيم الخلقية ، لمواجهة مذاهب الهدم والشك التى لا ترى فى الوجود حقيقة واحدة ثابتة ، ولا قيمة ثابتة ، ولا تدين إلا باليشك فى كل شىء ، ولمواجهة المذاهب المادية الملحدة التى لا ترى فى الوجود نور الله الخالق وأفعال يديه ولمعات علمه وفيوض روحه الأعلى على عقل الإنسان وضميره ، حتى جعل العقل شاهداً معه ومع ملائكته على الوجود وعلى إثبات حقائقه العليا كما قال القرآن : « شَهِد اللهُ أنه لا إلَه إلا هو والملائكةُ وأولو العلم ، قائمًا بالقسْط ، لا إلَه إلاهو العزيز الحكيم » . وحتى جعل « الضمير » ميزانًا لقيم الخير والجمال والطهر :

(ولا أُقْسِمُ بالنفْس اللَّوَّامة) ، (بَلْ الإنسانُ على نفسه بصيرةٌ . ولو أَلْقَى مَعاذيرَه) . . .

وحقًّا إننا لا نستطيع أن نثبت أية قضية دينية أو عقلية أو خلقية ، إلا إذا أثبتنا قيمة الإنسان . لأنه عن طريق نفوس الأنبياء الذين هم خلاصة النوع ، وصلنا وحى الله وإرشاده ، وعن طريق نفوس العلماء وصلتنا أسرار الله فى خلق الكون وصنعه وتدبيره . فإذا أهدرنا قيمة الإنسان كما يهدرها الماديون الملحدون وأهل الشك فسنهدر نفسه وعقله وضميره ، وبالتالى سنهدر النبوة والقيم الخلقية التى وصلتنا عن طريق الأنبياء ، ونهدر العلوم والحقائق التى وصلتنا عن طريق العلماء والمفكرين ، وحينئذ لا يبقى أمامنا شىء نستطيع أن نؤمن بوجوده ، بل نعيش فى عالم من الشكوك والأوهام ليست فيه حقيقة ثابتة !

ومن هنا رأيت أن قيمة الإنسان هى القضية الفكرية الأولى التى لا بد من تقديم إثباتها وإقامتها أولا فى فكر الناس ووجدانهم ، ليتأتى بعدها بناء التفكير الدينى والعلمى بناء راسخًا لا يؤثر فيه جدل مكابر أو شك هدام . . .

لأنه إذا كان بعض الناس ينكر وجود الله لأنه لا يراه ، فكيف ينكر وجود نفسه ولا يؤمن بها وهو يعيشها ويحسها ملء شعوره وفكره ، ويراها رأىَ العين تملأ الأرض تكوينًا وتخريبًا وتكتشف وتخترع وتسخر قوى الطبيعة ؟ ! وإذا كان هذا النوع من الناس مضطرًا إلى الإيمان بالإنسان وقدرته وعلمه برغم أنه يراه مخلوقًا يعتريه الحدوث والموت والعجز والنقص ، فكيف لا يرى أن خالق الإنسان والكون جدير بالإيمان بوجوده وعلمه وقدرته وتنزهه عن وجوه النقص والعجز التى فى الإنسان المخلوق ؟ !

أو بعبارة أخرى : كيف لا يرى أن الكون الكبير وما يزخر به من آيات العلم والقدرة والحكمة والرحمة جدير بأن يثبت أن له إلهًا خالقًا وأن يلزم العقل الإنسانى بالاعتراف به ، مع أنه اضطر إلى الاعتراف والإيمان بالإنسان على ما فيه من نقص وعجز وجهل وفناء ! ؟ .

وسنوضح الآن موقف القرآن من هذه القضية الأساسية من ثنايا قصة خلق الإنسان واستخلافه فى الأرض كما أوردتها الآيات التالية :

(وإذ قال رَبُّك للملائكة إنِّى جاعلٌ فى الأَرض خَليفَةً ، قالوا أَتجعلُ فيها من يُفسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدماءَ ونحنُ نُسَبِّحُ بحمْدك ونُقدِّسُ لك ؟ ! قال إنى أعلمُ مالا تعلمون . وعلَّم آدَمَ الأَسماءَ كلَّها ثم عَرَضهُمْ على الملائكة فقال أَنْبِئُونِى بأَسماءِ هؤُلاءِ إن كنتم صادقين . قالوا سُبْحَانَك لا علم لنا إلا ما علَّمْتَنا إنك أَنت العليمُ الحكيم . قال يا آدمُ أَنبِئْهُم بأَسمائهم ، فلما أَنبأَهم بأَسمائهم ، قال أَلَمْ أَقُلْ لكم إنى أَعلمُ غَيْبَ السمواتِ والأَرض وأَعْلَمُ ما تُبْدُون وما كُنْتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسَجَدُوا إلا إبليسَ أَبى واستكبَرَ وكان من الكافرين) .

ومن هذه القصة العجيبة – التى لم ترد بتفاصيلها وجلالها ودقتها ولمحاتها ورموزها فى كتاب أى دين آخر – يثبت القرآن قيمة الإنسان وأثره فى إثبات حقائق الوجود وأسمائها ، كما يثبت شرف الإنسان وكرامته وفضله بين جميع الكائنات ، حتى الملائكة ، عن طريق العلم بما فى السموات والأرض من مشاهد وغيوب . . . وهو علم اختص الله به الإنسان وأظهره عليه وأخضع له به القوى العمياء والمبصرة ، إذ أمرها بالسجود له وطاعته فيما يصل إليه بعلمه وطهره .

وبذلك العلم أثبت الخالق جميع الكائنات الظاهرة والخفية أمام الملائكة ، حين جعلها تمر بعقل الإنسان ، فيمارس بحثها ويظهر خصائصها وأسرار تكوينها ، ويخلع عليها أسماءها ويبرزها إلى عالم الفكر الخالد والبيان الذى لعله خلاصة حياة الإنسان ، لأنه القوالب التى تعبأ فيها كل المعانى التى يصل إليها حسه ووعيه ، ثم يرفعها إلى الملأ الأعلى كلمات تطلعهم على أسرار من علم الله فى غيب السموات والأرض لم يعلموها وعلمها الإنسان .

ولذلك امْتَنَّ القرآن بتعليم الإنسان البيان فى قوله : (الرحمنُ علَّم القرآن . خَلَق الإنسانَ ، علَّمَهُ البيانَ) . . وفى قوله : ن . والقَلَم وما يَسْطُرونَ) . . . (اقرأْ وربُّكَ الأكرمُ الذىَ عَلَّم بالقلم علَّم الإنسانَ ما لم يعلم) . . .

وقد نظر الله الخالق ، كما تبين القصة ، نظرة سماح واغتفار لما تستلزمه حياة الإنسان بالجسم من الشرور والآثام ، إذ قد علم ما وراء فتوحه فى غيب السموات والأرض من آثار علمية ترجح على ما يقترفه من شرور وفساد وسفك دماء ، ولذلك قال للملائكة : « إنى أعلمُ ما لا تعلمون » حينما قالو « أتجعلُ فيها من يُفْسدُ فيها ويَسْفك الدماءَ ونحن نسبّح بحمدك ونُقَدّس لك » . . .

وقد أشار القرآن بهذه القصة إلى أن علم أسرار الله فى المادة والنفس هو الخصوصية التى اختص الله الإنسان بها . فإذا تخلى عن ذلك العلم ضاعت قيمته وفقد مبررات وجوده ، وذلك كما فى قول القرآن : (ولقد ذَرَأْنا لجهَنَّم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يَفْقَهون بها . ولهم أعْينٌ لا يُبْصرون بها ، ولهم آذانٌ لا يَسْمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون) . .

ولذلك كان العلم أساس تفضيل بعض الناس على بعض فى معايير القرآن فقال: (قال إن اللهَ اصْطَفَاهُ عليكم وزادَهُ بَسْطَةً فى العلمِ والجِسْم) . . (يرفعْ الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلْمَ دَرَجَاتٍ) . . (وقال الذى عنده عِلْمٌ من الكتاب أنا آتيك به قبلَ أن يَرْتَدَّ إليك طَرْفكَ) ، (هل يستوِى الذين يعلَمُون والذين لا يعلمون » . . وهكذا

ولم يفهم المسلمون المتخلفون هذه الحقيقة الكبرى التى لم يعط الله أحداً خلافته فى الأرض إلا عن سبيلها ، حتى أضاعوا دولة الإسلام وسيادته .

والعلم يهدى إلى الفضيلة وإلى القوة ، وثالوث العلم والفضيلة والقوة هو صوبلجان السلطان والمكانة فى الحياة . . .

وكان العلم أساس التفضيل فى القرآن لأنه أداة الإثبات لحقائق الوجود ، وأداة إقامة الحجة على الجاحدين المتشككين الهدامين الذين يدخلون إلى الدنيا المليئة بالعجائب فلا يرون فيها حقيقة واحدة تستحق الإيمان ، حتى حقيقة الحقائق وهى الله ووجوده !

فعن طريق العلم أثبت الإنسان قيمة نفسه ثم أثبت به وبها ربه وجميع حقائق الكون وجميع القيم العليا الفكرية والخلقية . . .

هذه هى القضية الفكرية الكبرى الأساسية ، وهذا هو دليلها من القرآن واضحاً لا لبس فيه ولا غموض، ونستطيع أن نبنى عليها جميع حقائق الدين وحقائق العلم مطمئنين .

ثم هناك مصداق لها من الدليل الواقعى ،هو ما وصل إليه الإنسان فى هذا العصر من الكشف عن أسرار لا عدد لها ، ومن القدرة على تسخير كثير من القوى الطبيعية ، حتى وصل إلى منبع القوة وهو تفجير الذرة ، وهى وحدة البناء المادى للكون ، وإلى تشكيلها كما يشاء واستخدام قواها الجبارة المختزنة فيها استخداماً قاهراً، ربما يكون هو وسيلة الوصول إلى السلطان الذى أشارت إليه الآيات: «يا معشرَ الجِنِّ والإنس إن استطعتمُ أن تَنْفُذُوا من أقطارِ السموات والأرضِ فانْفُذُوا ، لا تَنْفُذُون إلا بِسُلْطان) . . (فلا أُقْسِمُ بالشَّفَقِ ! والليل وما وَسَقَ.والقمرِ

إذا اتَّسَق . لتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عن طَبَقٍ) وقد بدأ فعلا استخدام الإنسان لسلطان العلم فى غزو الفضاء والتطلع إلى ركوب طباق السماء .

وهناك مصداق آخر لهذه القضية هو هذا الإعلان القرآنى عن تخويل الإنسان جميع وجوه الانتفاع بما خلق الله فى السموات والإرض فى مثل قوله : (هو الذى خَلق لكم ما فى الأَرضِ جميعاً) . . (وسَخَّر لكم ما فى السموات وما فى الأَرض جميعاً منه) . . (ولقد زَيَّنَّا السماءَ الدنيا بمصابيح) . . (ولقد كَرَّمْنا بَنِى آدم وحَمَلْناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفَضَّلْناهم على كثير ممن خَلَقْنا تَفْضيلاً » . .

وهذا تخويل يستوى فى أساسيات الحياة فى جميع الشعوب والأزمان والأمكنة فهو مع الإنسان البدائى ، ومع الإنسان الذى هو فى قمة العلم والحضارة ، فالجميع يسخر لهم ما فى الأرض وما فى السماء ، ولكن كل ينتفع حسب قدرته واحتياله .

أما مصداق هذه القضية فى المجال الخلقى فهو اعتماد القرآن على مقاييس الضمير البشرى وإحساسه بالخير والشر والحُسْن والقبح ، ولذلك أقسم به وجعله ميزان الحساب الداخلى والنقد الذاتى ، فقال : (لا أُقسِمُ بيوم القيامة . ولا أُقْسِمُ بالنفس اللوَّامة !) . . ثم أَتْبع ذلك فى نفس السورة بقوله : (بل الإنسانُ على نفسه بَصيرةٌ ولو أَلْقَى مَعاذِيرَه . .)

فى هذه الآيات يبين القرآن أنه فى يوم القيامة والبعث لحساب الإنسان على ما عمله فى الدنيا ، يكون ميزان « النفس اللوامة » ، أو « الضمير » بلغة هذا العصر ، أداة إثبات أمام الله الديان فى حسابه للنفس ، لأن الحساب السابق من الضمير للإنسان فى الدنيا حساب دقيق عسير لا يفلت منه شىء ولا يقبل المغالطة فى قليل أو كثير . ويصور القرآن ذلك فى قوله

« بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره ! »

أى أن صوت الضمير لا يمكن أن تسكته أو تخنقه الأعذار المنتحلة عن سيئة أو خطيئة ارتكبها صاحبه . . . مهما ألقى بها أمام نفسه أو الناس . فكل عذر منتحل ينهار ويتهافت أمام حساب الإنسان لنفسه فى ميزان ضميره وبصيرته المستمدة

من ضمير الوجود لتكون نبراساً يكشف الخير والشر كما حددهما الله فى الطبيعة والشريعة .

وسيكون حساب يوم القيامة فى موازين الله الديان مستشهداً بحساسية ضمائر الناس ودقة حسابها فى إدانتها لأصحابها .

فالضمير هو أداة ذوق المعانى والأفعال ووزن آثارها ، كما أن العقل هو أداة وزن الحقائق والعلوم .

وبما أن كل شىء فى الوجود مخلوق لغاية ، وليس أمر الحياة مصادفة واعتباطاً كان وجود موازين الحساب فى الدنيا ويوم القيامة حتمية حيوية وعقلية . . . وإلى هذا المعنى تشير الآيات التالية التى جاءت فى ختام نفس السورة التى افتتحت بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة :

« أيحسَبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدًى؟ ! أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى . ثم كان عَلَقَةً فخلَقَ فسوَّى . فجعل منه الزَّوْجَين الذكَر والأنثَى . أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى ! »

أى أن الذى ينتج هذه الحقائق والمعانى العلمية والخلقية والاجتماعية التى تزخر بها النفس الإنسانية المخلوقة من نطفة مهينة ، وعلقة دموية ضئيلة ، لا يصح مطلقاً فى حكم العقل أن يكون قد خلق كل أولئك عبثا ولغير غاية ستتضح كاملة فى يوم مشهود مجموع له الناس للحساب والجزاء .

وقد اتضح فى الدنيا جانب من تلك الغاية فى تأويل القصة السابقة ، قصة خلق الإنسان لإظهار أسرار من غيب السموات والأرض عن طريق عقل الإنسان وعلمه وضميره ، ولتسخير قوى الطبيعة والانطلاق بسلطان العلم من قيود الأرض .

إذاً فالله قد خلق الإنسان للعلم والكرامة فى الحياة الدنيا ، وللخلود فى الحياة الأخرى . فآدم أبو البشر خلق فى أحسن تقويم ، وأعطى الكرامة أمام الملائكة وأسكن الجنة وقيل له : (إن لك ألاَّ تَجُوعَ فيها ولا تَعْرَى . وأنك لا تَظْمأُ فيها ولا تَضْحَى) ثم أزلَّته قوةُ الشر عنها وأخرجته مما كان فيه . ثم أكرمه ربه فتاب عليه وهداه : (فتلَقَّى آدمُ من ربه كلماتٍ فتاب عليه) . ثم تركه للأرض وقوانينها يصارع

فيها الضرورات ويستخرج العبر والعظات ، ويكشف عن أسرار علم الله فى الطبيعة فى فيض من العرق والدمع والدم، ونكنه يسير إلى الأمام دائمًا فى نور من ذلك الهدى الذى أشار إليه القرآن بقوله : (فإما يأتينَّكُم منِّى هُدًى فمن اتَّبَع هُداى فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى . ومن أعرض عَن ذِكْرِى فإن له معيشةً ضَنْكاً ونحشُره يوم القيامة أعمى) .

(وبعد) فينبغى أن نشير فى ختام هذا الفصل إلى أمور مهمة هى مثار جدل حول رأى القرآن فى الإنسان فى الآيات التى تكشف الجانب السيء فى طبعه .

إن القرآن حين ينحى على الإنسان باللائمة ويقرعه بلواذع التقريعات ، على شره وإثمه وجهله وكفره فى مثل قوله :

(إن الإنسان لَظَلُومٌ كفَّارٌ) . . (إن الإنسانَ لربِّه لَكَنُودٌ) (إنه كان ظَلُوماً جَهُولا) . (قُتل الإنسانُ ما أكفره !) (وكان الإنسان أكثرَ شىء جدلا) (وكان الإنسان قَتُورًا) (أم تَحْسَبُ أنَّ أكثرَهُم يَسْمعون أويعْقِلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا) . إلى آخره . . . إنما يكشف بتلك الأقوال عن جانب لا بد من كشفه والاعتراف بوطأته فى طبع الإنسان الكلىّ ليحذره الإنسان الفرد ويهذبه ويفر منه إلى الله وإلى هداه ، ويحاول أن يستعلى عليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وما كان الله ليريد أن يلعن هذا النوع كله ويطرده من رحمته وهو الذى خلقه وسواه على هذه الغرائز والطباع المختلطة الخيرة والشريرة ليبتليه كما يقول القرآن : (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ) . . (هل أتَى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكورًا . إنَّا خلقنا الإنسانَ من نطفة أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرًا . إنَّا هديناه السبيلَ إما شاكرًا وإما كَفُورا) . .

فاحتدام عناصر المادة العمياء واختلاطها وتفاعلها فى نطفة الإنسان وفى تكوينه هو سبب شروره وانحطاطه إلى الأرض، بما نفسه من طبيعة الطين وثقله وكثافته وظلمته (لولا فَضْلُ الله عليكم ورحْمَتُهُ ما زَكَى منكم من أحدٍ أبدًا ولكن اللهَ يُزَكِّى من يشاء) . . (أيطمعُ كلُّ امرىء منهم أن يُدْخَل جنةَ نَعِيم . كلاَّ إنَّا

خلقناهم مما يعلمون !) . . (أَلَمْ نَخْلُقْكُم من ماءٍ مَهينٍ » . . (يَخْلُقُكم فى بطون أُمهاتكم خَلْقاً من بعد خَلْقٍ فى ظلماتٍ ثلاثٍ) .

فالإنسان يعانى من أخلاط نطفته وحدة عناصرها وكثافتها ومن ظلمات الأرض، ومن غرائزه الحيوانية العارمة ، محنة وابتلاء شديدين لا ينجيه منهما إلا مجاهدته وتزكية الله ورحمته . . .

وقد حمل الأمانة التى (عُرضت على السموات والأَرضِ والجبالِ فأَبينَ أن يَحْملْنَهَا وأَشْفَقْنَ منها وحَمَلها الإنسان) لظلمه نفسه وغروره وجهله بمقدار أعباء تلك الأمانة .

ولقد اعترف القرآن بأَن الإنسان خلق ضعيفاً فى مشقة ونَصَبٍ وكَبَد فقال : «وخُلِق الإنسانُ ضعيفاً) . . (لقد خلقْنا الإنسانَ فى كَبَدٍ) . . (يا أَيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ » . .

فهل للمسلمين فى هذا العصر أن يحملوا رسالة الدعوة إلى الإيمان بالإنسان والثقة به وإنصافه وإقرار حياته على العدالة والسلام . فإنها رسالة مستمدة من قرآنهم : كتاب الله الناطق ، ومن الطبيعة كتابه الصامت . . .

وإنها لنظرة جديدة إلى الكون من خلال تلك النظرة الجديدة إلى الإنسان . . . ذلك الكائن العجيب الصاعد من طين الأرض . . . ! !